الشعر وبناء القيم الإنسانية

بقلم الدكتور
محمود محمد البدة
عميد الكلية

Scanned with OKEN Scanner

الشعر وبنـــاء القيم الإنسانية

بقلم الأستاذ الدكتور
محمود محمد لبدة
عميد الكلية

نعنى بالشعر مايجىء تعبيرا عما تحسه النفس ويدركه الفؤاد ويعيه القلب، لا ما تدركه العين ويحدد أبعاده العقل ويخضع خضوعا مطلقا لحسابات التفكير، وقياسات المنطق، فإنه أقرب إلى الفلسفة أو إلى البحث فى مذاهب الأخلاق أو التطبيق لمقررات علم الجمال التى تسلب الفن عامة والأدب خاصة إذا هى طبقت عليه كل معنى من معانى الجمال.

والشعر الذى يعبر عما تحسه النفس حين تتأثر بالمعانى، وتهتز للمواقف، وتؤخذ بجلال القيم، شقيق الشعور لفظا ومعنى.

والنفس الشاعرة تحمل الألفاظ فى تركيبها البيانى من الدلالات المكثفة، والاحساسات الدقيقة الصادقة ما يعجز الوصف عن وصفه، لأنها تنقل الشىء على غير ما هو فى نفسه وحقيقة ذاته، ليكون شيئا له قيمة وحقيقة ووجود فى نفوسنا.

ولأنها لا حد لها فى سبحاتها التأملية، وانطلاقاتها الخيالية حين تصور، وتبدع إبداعها فيجىء وله إشراقه وجماله الذى ينقلنا من سجن الواقع الأليم إلى ساحات العالم الواسع حيث الدقائق والرقائق، والبدائع والبدائه فى

(وحدة موسيقية نفسية تنتظم مقطوعات موحدة ، لا يزال بعضها يكمل البعض ، وتنمو بنمو الإحساس المتصاعد إلى الاشباع)(١) .

ولا يعني هذا أن الشاعر حر حرية مطلقة حين يودع إحساسه ، فحريته محصورة في إطار موضوعه الذي قال فيه ، وهذا الموضوع في نظرنا نحن جمهرة المتلقين اختيار ، وللشاعر الصادق اضطرار وإجبار لأنه لا يبحث عن موضوع ليقول فيه شعرا ، وإنما الموضوع هو الذي يفرض نفسه عليه ، ويختاره ليكون مفسره الذي يتكلم عنه بذات لغته ما يستنكر منه أو ما يستحب ويستجاد، ولا يكون الشاعر كذلك إلا إذا جعل من نفسه مرآة ومن صفحة قلبه المشرقة الوضيئة إحساسا يندفع ولا يتبلد ، ويقوى ويتجلد حين يستقبل واردات الخواطر ، وفيوضات المعاني تجاه الموضوع الذي يقع تحت مؤثراته .

ولعل هذا يفسر ما روى من أن المتنبي وفد على الأمير « أبو محمد ابن طغج » ليمدحه، وكان الشريف أبو القاسم طاهر العلوي يتمنى أن يحظى بمدح المتنبي له ، فأحال عليه الأمير، فكان كلما ازداد الأمير على المتنبي إلحاحا إزداد المتنبي رفضا وإباء ويقول « ما قصدت غير الأمير ولا أمدح سواه » ثم انتهيا إلى أن ينظم المتنبي قصيدة في الأمير ـ ثم يجعلها للشريف أبي القاسم.

إن مجرد الشعور عند المتنبي بأن الممدوح دون ما يقول ، أو أنه لا تمتد فيه إليه رغبة، ولا تمنعه عنه رهبة ، أو أنه ليس له من الأدب والفضل ما يجعله أهلا لمدائحه ، جعله لا ينطق بما لا يؤمن، ولا يقول إلا ما يجد .

هذا من حيث الموضوع الذي يجري الشاعر في إطاره، ويودعه دفقاته الشعورية ، ودفقاته البيانية .

---

(١) في الميزان الجديد لمحمد مندور ص ٧٤ .

أما من حيث غايته من وراء هذا الموضوع ، والوسائل التى سلكها ، واستعان بها لبلوغ هذه الغاية ، ومدى التوفيق الذى حالفه أو جانبه ، وهو يتمثل معانى هذا الموضوع ، ويمرها فى معمله الخاص به لتخرج شيئا جديدا (غايته قوة الأداء مع الصحة ، وسمو التعبير مع الدقة وإبداع الصورة زائدا جمال الصورة)[١] ، فهو متوقف على أمور عدة :

أولها : مجموع ما فيه من قوى الفكر ، وسداد الرأى ، ونفاذ البصيرة ، وجموح العاطفة ، فهذه متكاملة (هى التى تجعل اللفظية المفردة فى ذهنه معنى تاما ، وتحول الجملة الصغيرة إلى قصة ، وتنحى باللمحة السريعة إلى كشف عن حقيقة)[٢] .

ثانيها : منظور الشاعر قصد الحياة التى تمسكه بضروراتها ، وتخضعه لنواميسها ، وتجعله يدوران طوعا أو كرها فى فلكها ، ومدى اعتداله أو إفراطه أو تفريطه فى نظرته إلى هذه الحياة من حيث التفاؤل أو التشاؤم ، والحب أو البغض ، والرضا بالواقع أو السخط عليه ، وليس من شك فى أن النفوس البشرية صناديق مقفلة ، لا يكشف عن دخائلها ، ولا يظهرها على حقيقتها إلا التجارب والشدائد ، فإذا وجد الإنسان نفسه حبيس الواقع رهين الآلام فإنه لا يجد متنفسا إلا فى قطعة شعر يشدو بها ، أو يستمع إليها مسحورا ببيانها ، أو فى قطعة موسيقية يضربها ليبعث فى صوتها مواجعه وآلامه أو يرهف بأذن قلبه إليها ليناغى بها آماله وأحلامه .

والشعراء يتفاوتون فى ترجمتهم للواقع الذى يحسونه تفاوتا كبيرا ، فمنهم من يقبل الواقع على ماهو عليه ، لا لأنه يئس من إصلاحه ، أو رضى بذله وضيمه ، ولكن لأنه خبر الحياة وخبرته وحلب أشعارها وحلبته ، فوجد السرور لا يدوم ، والحزن لا يدوم ، والفائت لا يرد فآمن بهذا ودعا

(٢،١) وحى القلم ١/١٦ .

إليه ، فاتفقت دعوته مع قوله تعالى : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » فهتف من أعماقه قائلا :

لا تلق دهرك إلا غير مكترث ما دام يصحب فيه روحك البدن
فما يدوم سرور ما سررت به ولا يرد عليك الفائت الحزن
ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

ومنهم من ضاقت بالواقع نفسه فبرم وسخط ، لأن مسيرات القدر فى ظنه ووهمه لا تعدل فى العطاء بين البشر ، فالعاقل مضيق عليه ، والمجنون موسع عليه وهكذا مما يخالف ظاهره الواقع ، وتخفى فيه الحكمة الإلهية فيقول : - وأظنه ابن الراوندى - :

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل وترزق مجنونا وترزق أحمقا
فلا ذنب يارب السماء على امرىء رأى منك ما لا يشتهى فتزندقا

ومنهم من يؤمن ويسلم بصنع القادر ، ولكنه يقف معجبا مأخوذا يصور ما يراه فيصفه ، ويصور ما أوحى به لعقله وقلبه وحسه وشعوره ، فيقول :

سبحان من وضع الأشياء موضعها وفرق العز والإذلال تفريقا
كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الأوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا(٢)

* * *

والفقهاء فى هذا المعنى كالشعراء ، فهم يبرزون إحساسهم به فى عمل شعرى يفيض به القلب فى صيغة متسقة من اللفظ ، وما أظن قول الشافعى - رضى الله عنه - :

لو أن بالحيل الغنى لوجدتنى بنجوم أفلاك السماء تعلق
لكن من رزق الحجا حرم الغنى ضدان مفترقان أى تفرق

(١) ديوان المتنبى : ٤/٢٣٤ .
(٢) الأبيات لابن الراوندى وانظر معاهد التنصيص ١/١٤٧ .

فإذا سمعت بأن محروما أتى ماء ليشربه فغاض فصدق
أو محظوظا غدا في كفه عود فأورق في يديه فحقق
ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس الطبيب وطيب عيش الأحمق (١)

* * *

ما أظن هذا ، وهو كلام فقيه - يخالف قول أبي تمام - :

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ويكدى الفتى من دهره وهو عالم
ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا هلكن إذن من جهلن البهائم
فلم يجتمع شرق وغرب لقاصد ولا المجد في كف امرىء والدراهم (٢)

* * *

ثالثها : القيم التي آمن الشاعر بها ، وعمل على تأصيلها ، ونفذ بشعره إلى بواطنها واستوحى معانيها ، حتى صار نموذجا إنسانيا يضرب به المثل في فيض الإحساس ، ومضاعفة قوة الشعور بالمعنى ، ولا شك أن الشعراء ، وبخاصة بناة القيم يمثلون مجتمعين سلسلة القيم الإنسانية ، محكمة الحلقات ، متصلة الدائرة ، وقد فطن الشاعر أبو تمام إلى هذا المعنى حين قال :

ولولا خلال سنها الشعر ما درى بغاة الندى من أين تؤتى المكارم (٣)

والقيم الإنسانية التي نعنيها هي التي لا غنى الإنسانية عنها ، وهي الحقائق الكبرى الخالدة التي يكتب فيها الناس على اختلاف سلائقهم وأمزجتهم ، ثم هم لا يأتون عليها ولا يصلون إلى نهاية أعماقها ، يكتب فيها المصلحون الاجتماعيون ، ويكتب فيها القصاصون والمسرحيون ، ويكب فيها البيانيون أصحاب الطبائع الملهمة ، والنظرات الدقيقة المحكمة ، ويكتب فيها الفلاسفة على اختلاف مذاهبهم في الفكر ، ومناهجهم في الاعتقاد ، وينظم فيها الشعراء فيسيل بيانهم رحيقا حلوا ، وعصارة حية مستخلصة من أفكار

(١) معاهد التنصيص ١/١٥١
(٢) ديوان أبي تمام ٢/١٧٨ .
(٣) ديوان أبي تمام ٣/١٨٣ .

المفكرين ، ومذاهب الفلاسفة والباحثين ، ولكن فى أسلوب آخر أرق وأدق وأجمل ، وعلى طريقة تصيب مواقع الشعور ، وتثير مكامن الخيال ، (الأدب من الفلسفة ومن العلم كالزهرة الجميلة . وكالثمرة الناضجة ، وكالخضرة النضرة من الشجرة الضخمة شجرة الفلسفة ، ومن الجذور التى نبتت عليها هذه الشجرة ، والتى هى بمثابة العلم من الفلسفة ، فلكى تكون حديقة الأدب جميلة ، ولكى يكشف الأديب للناس عما فى الحياة من حق وجميل ، وليؤدى الرسالة العظيمة الملقاة على أدباء العصور جميعاً ، يجب أن يتغذى ما استطاع من ورد الفلسفة ومن ورد العلم ، وهو كلما كان أكثر غذاء من هذين الوردين كان أقدر على أداء الرسالة ، وكان أديبا حقا)(١) .

هذه القيم الإنسانية هي الحق والخير والحب والجمال ، الحق فى الفكر الذى يقوم عليه ، والجمال فى التعبير الذى يتأدى به بحيث ينقله الشعور حيا إلى القلب ، والخير فى الغرض الذى يساوله ، والحب الذى هو بمجمع العواطف التى تجمعت فى هدوء ، ونبع الشعور الذى فاض فى قوة ، ومصدر التنفيس عن المعانى والأفكار التى تخاطب الوجدان الإنسانى مباشرة .

وفى ضوء هذه القيم يسجل الشاعر أحاسيسه عن الأشياء بعد أن تكون قد مرت بالمراحل التى أجملها ابن طباطبا فى قوله : (فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذى يريد بناء الشعر عليه فى فكره نثرا ، وأعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التى تطابقه ، والقوافى التى توافقه ، والوزن الذى يسلس له القول عليه ، فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذى يرومه أثبته ، وأعمل فكره فى شغل القوافى بما تقتضيه من المعانى على غير تنسيق للشعر ، وترتيب لفنون القول فيه ، بل يعلق كل بيت يتفق له نظمه ، على

---

(١) ثورة الأدب ص ٢٧ .

تفاوت ما بينه وبين ما قبله، فإذا أكملت له المعانى، وكثرت الأبيات وفق بأبيات تكون نظاما لها، وسلكا جامعا لما تشتت منها.

ثم يتأمل ما قد أداه إليه طبعه، ونتيجته فكرته، فيستقصى انتقاده، ويرم ما وهى منه، ويبدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقية، وإن اتفقت له قافية قد شغلها فى معنى من المعانى، واتفق له معنى آخر مضاد للمعنى الأول، وكانت تلك القافية أوقع فى المعنى الثانى منها فى المعنى الأول، نقلها إلى المعنى المختار الذى هو أحسن، وأبطل ذلك البيت أو نقض بعضه، وطلب لمعناه قافية تشاكله)[1]، وتسجيل الشاعر أحاسيسه وانطباعاته يعنى (أن تخرج الحقيقة مضافا إليها الفن ويجىء التعبير مزيدا فيه الجمال، وتتمثل الطبيعة الجامدة خارجة من نفس حية، ويظهر الكلام وفيه رقة حياة القلب وحرارتها وشعورها وانتظامها ودقتها الموسيقى وتلبس الشهوات الإنسانية شكلها المهذب لتكون بسبب من تقرير المثل الأعلى الذى هو السر فى ثورة الخالد من الإنسان على الفانى، والذى هو الغاية الأخيرة من الأدب والفن معا)[2].

وأما ما عدا ذلك أو بتعبير أدق ما دون ذلك من أثر العواطف حين تجلى أحاسيسها فهو من قبيل النظر الظاهر أو السطحية الشعورية التى لا يختص بها أحد دون أحد وليس فى الإفضاء بها شىء من الشعر، لأن الشعور بها مشترك بين الناس جميعا وإذا كانت كل قيمة من هذه القيم الإنسانية الخالدة، لا تستغنى عن الأخرى فى العمل البيانى لأنه بمجموعها متكاملة يحلق الأديب فى سماوات الكمال ويصعد فى مراقى الوجود بكل معانيه، فإن كل قيمة بذاتها منفردة ملهم قوى ومحـــرك لانبعاث الفيض الداخلى المضىء فى النفس الشاعرة، فالحب بمطلق معناه قيمة تجعل الشاعر

---

(١) عيار الشعر لابن طباطبا ص ١٩ (٢) وحى القلم ٣/٢١٣.

يهتز لآلام البشرية وويلاتها اهتزازا يعدل بل يزيد عن فرحه بآمالها ، وهو أعنى الحب هو الذى يرتفع بالنفس عن الواقع المنحط المجتمع من امشاج مختلطة من الشهوات والمطامع والرغبات والمصالح ، وهو الذى يجعل للشدو الفنى معنى البقاء فى كل جيل ، والترداد على كل لسان ، لأن سند أساسه هو الشعور الإنسانى الصحيح .

ولا يزال ما قاله حافظ إبراهيم فى حريق بيت عمر فى مايو سنة ١٩٠٢ يذكى فى نفوسنا لهيب النار المتضرمة ، وصراخ الأطفال ، وعويل النساء ، وقهر الرجال :

سائلوا الليل عنهم والنهارا ... كيف باتت نساؤهم والعذارى
كيف أمسى رضيعهم فقد الأم ... وكيف اصطلى مع القوم نارا
كيف طاح العجوز تحت جدار ... يتداعى وأسقف تتجارى
رب إن القضاء أنحى عليهم ... فاكشف الكرب واحجب الأقدارا
ومر النار أن تكف أذاها ... ومر الغيث أن يسيل انهمارا
أين طوفان صاحب الفلك؟ يروى ... هذه النار ، فهى تشكو الأوارا
أشعلت فحمة الدياجى فباتت ... تملأ الأرض والسماء شرارا
غشيتهم والنحس يجرى يمينا ... ورمتهم والبؤس يجرى يسارا
فأغارت وأوجه القوم بيض ... ثم غارت وقد كستهن قارا
أكلت دورهم فلما استقلت ... لم تغادر صغارهم والكبارا
أخرجتهم من الديار عراة ... حذر الموت يطلبون الفرارا
يلبسون الظلام حتى إذا ما ... أقبل الصبح يلبسون النهارا
حلة لا تقيهم البرد والحر ... ولا عفرهم تردا الغبارا

ثم يوجه النداء إلى الأغنياء لإقالة عثرة المنكوبين هؤلاء فيقول :

أيها الرافلون فى حلل الوشى يجرون الذيول افتخارا

إن فوق العراء قوما جياعا يتوارون ذلة وانكسارا

. . .

ثم يوازن بين حالين حال الأغنياء الذين يرفلون فى حلل النعيم، ويمرحون فى فنون الترف وحال البؤساء الذين امتدت إليهم يد القدر فالبستهم رداء الذل، وغشيتهم بما يعجز الوصف عن وصفه من ألوان البؤس :

قد شهدنا بالأمس فى مصر عرسا ملأ العين والفؤاد اعتبارا
سال فيه النضار حتى حسبنا أن ذاك الفناء يجرى نضارا
بات فيه المنعمون بليل أخجل الصبح حسنه فتوارى
يكتسون السرور طورا وطورا فى يد الكأس يخلعون الوقارا
وسمعنا فى (ميت عمر) صياحا ملأ البر ضجة والبحارا

. . .

ثم يختم القصيدة بالحكمة التى تملأ القلب يقينا، والنفس سكينة، والثورة هدوء فيقول :

جل من قسم الحظوظ، فهذا يتغنى، وذاك يبكى الديارا
رب ليل فى الدهر قد ضم نحسا وسعودا وعسرة ويسارا (١)

. . .

بل لا يزال ما قاله فى «زلزال مسينا» آية ليست فقط من آيات البيان وفنونه، وإنما هى آية المبدأ الثابت، والخلق القوى، والحب المستفيض المعلن عن مكنونه والشفقة العارمة التى تصور الحقائق على قدرها فى النفس لا فى اللغة.

---

(١) ديوان حافظ ١/٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١.

ما (لمسين)؟ عوجلت فى صباها ... ودعاها من الردى داعيان
وبحت تلكم المحاسن منها ... حين تمت آياتها آيتان
خسفت ثم أغرقت ثم بادت ... قضى الأمر كله فى ثوانى
وأتى أمرها فأضحت كأن لم ... تك بالأمس زينة البلدان
ليتها أمهلت فتقضى حقوقا ... من وداع اللدات والجيران
لحة يسعد الصديقان فيها ... باجتماع ويلتقى العاشقان
بغت الأرض والجبال عليها ... وطغى البحر أيما طغيان
تلك تغلى حصدا عليها فتنشق ... انشقاقا من كثرة الغليان
فتجوب الجبال رجا وقذفا ... بشواظ من مارج ودخان
وتسوق البحار ردا عليها ... جيش موج نائى الجناحين دانى
فهنا الموت أسود اللون جون ... وهنا الموت أحمر اللون قانى (١)

• • •

وهكذا طال نفس حافظ فى هذه القصيدة حتى بلغت تسعة وخمسين بيتا ، كلها من ذوب قلبه ، وفيض نفسه الحرى مطلعا ومقطعا ووصفا وتصويرا ، ومتى كان الشاعر صادقا مع نفسه وقرن هذا الصدق النفسى بصدق فنى فى الأسلوب فإنه يستطيع أن يهب لنا شعرا سليما فى جوهره على حد قول الناقد « ماثيو أرنولد » (٢) :

ومتى قدر الشاعر على تعميق إحساس القارىء بالموضوع الذى يتناوله فقد وضع فى يده مفتاح المقاييس الجمالية الصحيحة التى تعينه على الحكم الصحيح من غير مبالغة أو تضاليل .

وإن كان أحد نقادنا الكبار قد اعتبر قصيدة حافظ فى زلزال « مسينا » من شعر المناسبات ، وعزا تصور الإلهام فيها (إلى ضعف ثورة النفس ،

(١) ديوان حافظ ٢٠٥/١ .
(٢) راجع مقالات فى النقد لماثيو أرنولد ترجمة على جمال الدين عزت ص ٥٠ .

إلى هذه السكينة المطمئنة وإلى الاكتفاء بمحاكاة السلف ، ومعارضتهم ، والنسج على منوالهم)[1] فإنى على النقيض مما قال ، لأن المعول كله ليس على المناسبة وإنما على إيمان الشاعر بما قال ، وقدرته على التعبير عما يحسه ، وحسه فى اختيار النغمة الموسيقية المتسقة مع الموضوع الذى يرسل شدوه فى أرجائه حزناً وغما أو فرحا وابتهاجا .

ثم إن جرى الشاعر على التقاليد الأدبية مما يحسب له لأنه يضع نصب عينيه الأسس والركائز الثابتة ثم ينطق انطلاقا منظما له مجرى يستوعبه وساحلان يقف عندهما مده الخيالى ، بحيث تتعادل نسب العاطفة والفكر والخيال والأسلوب والوزن ، ومن هنا يأتى الفرق الكبير بين التقاليد والتقليد وما قلناه فى الحب ينطبق تمام المطابقة على الحق والخير والجمال (وهى المثل التى لا تتغير باختلاف المكان أو الزمان أو الطبقة الاجتماعية)[2] .

وهى الحقائق التى ستبقى محتاجة فى كل عصر إلى كتابة جديدة من أذهان جديدة كما قال الرافعى - طيب الله ثراه - .

وهى الحقائق التى تتصل اتصالا وثيقا بالنفس البشرية ، وخلجاتها الدقيقة ، ومشاعرها المعقدة ، وتتصل اتصالا وثيقا بمظاهر الكون والطبيعة وما فيها من أسرار لا تجليها إلا النفوس التى تستملى ماوراء الواقع المشاهد ، وتستوحى مافيها من عظات وعبر وتتصل إتصالا وثيقا بالجانب الأخلاقى من غير إمعان فى المثالية الهربية ولا انحصار فى حقيقة الواقع المحدود .

وتتصل اتصالا وثيقا باللغة التى هى الوسيلة الوحيدة لخلق عمل فنى له

---

(١) راجع ثورة الأدب لهيكل ص ٦٤ .

(٢) المذاهب الأدبية لنبيل راغب ص ١٤ .

دوره الريادي في التطور الحضاري ، وله قدرته على فقدان المتلقي كل مناعة لمقاومة كل فكرة يطرحها عليه .

ومن هذه النقطة يحدث الفرق الواسع ، والبون الكبير بين أدب الالتزام الهادف وأدب الانحطاط الهادم ، والعيب هنا ليس في القيمة أو القيم الإنسانية ، وإنما العيب في النفوس البشرية التي جبلت على طبائع مختلفة وأهواء ونوازع متدافعة .

ومهما يكن من شيء فإن أدب الطبائع الموهوبة مهما حاد عن طريق الالتزام خير ألف مرة من أدب الطبائع المكسوبة أدب الذكاء والصنعة (لأن كل أدب خلا أدب الطبائع غير قمين أن يناط به الرجاء)(١) .

والعيب هنا كذلك ليس في اللغة لأنها في أصل استعمالها مفردات لغوية يحسن استعمالها في التراكيب الأدبيـــة فتأتي على لسان الحكماء والأنبياء والملهمين من كبار الشعراء والبيانيين ولها إشراقها وجمالها ، إشراق الورد حين تتفتح اكمامه ، وجمال الربيع حين ينشر أنفاسه .

وبساء استعمالها فيكون منها الهجاء الفاحش ، والغزل الداعر الفاجر ، والغرور بالنفس البالغ حد الكبر على الخالق جل شأنه ، وألحان الحان في ليل بات يفتك فيه بالسكران سكران كما قال أبو نواس وهكذا . . .

وإذا كان الشعر صوت الحياة الطبيعية في كل أمة وعلى كل لسان ، فهو إذن لا يعرف القرار على حال واحدة ، وهكذا سنة الله في خلقه (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) .

فلا غرابة ولا تنافر إذن إذا سمعنا معاني وأشجانا من أودية مختلفة وادي الروح المفعوم بالحياة والجمال ، ووادي الطفولة في براءتها وسماحتها ووادي

---

(١) مقدمة الجزء الأول من ديوان العقاد بقلم العقاد نفسه ص ٣

التقديس والقنوت فى محراب العبادة ، ووادى الرمز بمـا يحمله من دلالات مكثفة ، وإيحاءات بعيدة المدى ، ووادى المجتمع وما يفرضه من واجبات على الأديب تجعله اللسان الناطق المعبر عن كل المشاكل والقضايا والأحداث .

كل هذه النغمات المختلفة تشكل إيقاعا حيويا جميلا يمثل النفس البشرية فى منازعها المختلفة حين ترضى ، وحين تسخط ، وحين تهدأ ، وحين تثور ، وحين تعتدل ، وحين تبالغ وهكذا ...

وربما اجتمعت هذه الشعوب فى شاعر واحد ، تتوزع على أطوار عمره المختلفة من الصبا الذى يجعـله يتنقل بين أفنان الوصف وأزهار الغزل إلى الشباب الذى يجعله حديدا شديدا كأنه القذائف أزا ودويا ، إلى المشيب الذى يلبسه ثوب الاعتبار ، ويجعله بمسحة من الوقار .

وربما تفرقت على شعراء كثيرين ، يستقل كل واحد منهم بصفه ، وهذا قديم جديد (ولكل زمن شعر وشعراء ، ولكل شاعر مرآة من أيامه ، فقد انفرد امرؤ القيس بما علمت ، واختص زهير بالحوليات ، واشتهر النابغة بالاعتذارات ، وارتفع الكميت بالهاشميات ، وشمخ الحطيئة بأهاجيه ، وساق جرير قلائده ، وبرز عدى فى صفات المطى ، وطفيل فى الخيل ، والشماخ فى الحمير ..

ولقـد فتن الناس ابن المعتز بتشبيهاته ، وأسكرهم أبو نواس بخمرياته ، ورقت قلوبهم على زهديات أبى العتاهية ، وجرت دموعهم لمراثى أبى تمام ، وابتهجت أنفسهم ببدائع البحترى ، وروضيات الصنوبرى ، ولطائف كشاجم)[1] .

ومهما يكن من شىء فإن لكل موضوع يتناوله الشعراء أثرا فى بناء القيم الإنسانية وتأصيلها فى النفوس ، لأن الحياة لو سارت على نغمة واحدة لفقد

(١) مقدمة ديوان مصطفى صادق الرافعى ص ٠٧

الناس حقيقة الإحساس بمعناها خيرا كانت هذه النغمة أم شرا ، ولكن هذا التقلب المستمر لطوفان النفس البشرية هو الذى يجعل الناس يشعرون بمعنى الإيمان إذا وجد الكفر ، وبطعم الهدوء إذا وجد الضجيج ، وبأثر العمق إذا فشت السطحية ، وبجلال الأخلاق إذا علا صوت المنكر من فاحش القول ، وساقط الكلام .

وقبل أن أضرب أمثلة لما أقول أقرر أن ما أثير على ألسنة النقاد أنصار المذاهب والاتجاهات المختلفة من إتهام للشعراء ليس له سند حقيقى ، لأن ظروف الحياة هى التى تفرض الاتجاه على الأدباء والفنانين عامة والشعراء بصفة خاصة ، ولأن الشاعر هو الذى يعبر بأسلوبه الفنى عن ملامح الاتجاه الذى فرض نفسه عليه ولأن الشاعر إنسان بل هو إذا كان صادقا فى شعوره قادرا على التعبير عن هذا الشعور النموذج الفذ ، والمثال الكامل للكيان الانسانى بكل ما يعتريه من تقلب وتغير ، ووجدانه العميق ، وذاتيته المعتدلة لا تفارقه فى أى موضوع يطرقه .

فقط نحاسبه ونوجهه حينما ينسى الموضوعية ، ويخضع خضوعا مطلقا لتجريد المذهب الطبيعى ، أو للجمود المفرق فى الأشكال التقليدية البالية ، أو للرومانسية المسرفة فى الانطوائية وحب النفس والهرب من الواقع .

ومن منا يسمع الشاعر المصرى الأصيل أحمد زكى أبو شادى فى قصيدته « من حنين الغربة » ثم يدعى أنه قصر فى نقل تجربته التى عاش معانيها بكل أبعادها أو أن هذه التجربة لا تنطبق على كثيرين فى كل عصر ومصر ، أو أنه مثل المعانى التى يحسها تمثيلا تراه العين ويدركه الفؤاد وتهتز له النفس :

ست من السنوات جاوز عمرها ... عمرى بل الأبد السحيق ورائى
هيات أغفر ما جنته فلؤها ... رمم من الآمال والأرزاء
خلطت كأشلاء الحروب وليتها ... دفنت ولم تضحك على أشلائى

وإذا بعثت فما أرى إلا الأذى ... فيها وما يشجى من الأصداء
فكأنما الآمال لا بعث لها ... وكأنما الأرزاء دون إزائى
قالوا: ويحف بك النعيم ألا ترى ... بعض الحنين هو الجحود لنائى؟
إن كان، فالقلب الموزع شارد ... مثل النعامة فى رؤى الصحراء
يجرى إلى الماضى فتنقله الهوى ... فوق النجوم إلى أحب سماء
بقفات من إشعاعها وخيالها ... ويعود بين مجاعة وظماء
لو أستطيع خنقتها بأناملى ... فعلى يدى سكبت عزيز دمائى
ست من السنوات، كم من لوعة ... فيها، وكم من دهشة لوفائى
ودمى يسيل على بيوت مشاعرى ... لهفا، ويذكى النار على رجائى
ما اخترتها طوعا، ولكن غضبة ... للحق والأحرار والشهداء
وأظل أعتنق الشقاء عقيدتى ... ما دمت ألهم أمتى بشقائى
مثلى على الحالين جد مغرب ... كالنور حين تراه عين الرائى
لا موطن لى غير موطن مهجتى ... فإذا أبوا لم يبق غير إبائى
فيها أرضى العيش بين أذلة ... خصوا مودتهم بكل مرائى
سأظل أرقب صابرا تحريرهم ... من هذه الحشرات والأدواء
فإذا حييت وقدرتنى أمتى ... وتحصرت لبنيها بولائى
وإذا مضيت إلى الفناء وهبتها ... فى الغربتين هواى دون فناء(١)

* * *

ولم تكن هذه أول قصيدة له فى الحنين إلى الوطن وإنما كانت له قصائد كثيرة، يتذكر سبب خروجه فتسيل أسلة بيانه فى قصيدة «لمن أعود»؟

ألا تعود؟ سؤال رن فى أذنى ... ولا يزال، فهل لم يعرفوا شجنى؟
غادرت «مصر» لما عانيت من عنت ... كأن جرمى أنى سابق زمنى

(١) ديوان الإنسان الجديد لأبى شادى ص ٣٤٣، ٣٤٤

غادرتها بعد ما عوقبت دون ونى ... على وفائى ولا بدائى إلى وطنى
غادرتها وأنا المبقى محبتها ... دينى ولا دين مصلوب على وثن
وما تزال بها الأحداث عابثة ... عبث العواصف بالعصفور والفنن
لمن أعود ولم تنشد معاونتى ... بل جاربتنى بألوان من الإحن
لكل أحمق أو لص وذى ضغن ... وحاسد نفثوا فى الدس والضغن
وكيف أهجر أرضا كرمت أدبى ... وبجلتنى وأعلتنى بلا ثمن
سوى تحرر تفكيرى، وأكثره ... نفع (المصر) على الحالين لم يهن
لمن أعود وفى منفاى لى وطن ... وذاك مسقط رأسى اليوم باعدنى
لمن أعود ولا أهل ولا سكن ... وخير صحبى فى دمعى وفى حزنى
لمن أعود وجهدى ضائع سفها ... فى (مصر) والحاكم المأفون خاصمنى
ليس اغترابى اغترابا إن يصن فكرى ... ولم يشد صدق تعبيرى وشجعنى
وإن أذق من حنينى لوعة فأسى ... على مراتع أحلامى مع الزمن(١)

* * *

ويغلبه حب الوطن، فينسى كل آلامه ويزداد ثقة وعزما وإصرارا ليكون رجل صدق المبدأ إذا عزت المبادىء، وصدق الكلمة إذا ندر الوفاء وصدق النزعة.

إذا تغلبت الأهواء:

وطنى رأيتك فى الربيع فمطره ... حولى شذاك برعشة كتلهفى
ورأيت أيام الشباب بلابلا ... غنت ونورا شاق غير مزيف
ورأيت أيام اغترابى كلها ... نبض العليل، وخفق قلب المرجف
تتباطأ الأعوام وهى سريعة ... كخواطرى، ومريرة كتقشفى
أبدا أحن إليك غير مؤمل ... حظا سوى هذا الحنين المتكيف

(١) السابق ص ٣٢٢ .

والمجد إن ألقاك حرارا فلا … بهلاك لا أرجوك يوما منصفي
لا يرتجى الأحرار يوما مغنما … غير العذاب وغير كيد المرجف
في الروع لا ينسى الورى إيذاءهم … لكنهم ينعون عند المقصف
أملا بعطرك لا أبالي بعده … أعرفت ما ضحيت أم لم تعرف
هو رجع أشواق إليك تعيده … شعرا على النسمات جد مؤاف
قالوا جننت نعم جننت وقد غدا … ذاك الدخيل مضيفي ومثقفي
لا تنهروني إن ضحكت وقد بكى … حولي الربيع الغربي وتعففي
لا تنهروني إن بكيت وموطني … نهب لكل معربد متفلسف
لا تنهروني إن شغلت بحبه … رغم الجناة على دون تأسف
لا تنهروني إن حلمت بكل ما … عانيت فيه كأنه حظ الوفي
لا تنهروني عند نجواي فكم … أهفو لأوصاف له لم توصف
لا تنهروني حين خلتم أنني … أغني بما حولي بهش واكتفي
لا تنهروني أن يلج بي الهوى … فطغى كطغيان العذول الملحف
لا تنهروني إن تبلبل خاطري … فالكون من حولي قرين تشوفي
لا تنهروني قد رضيت تهدمي … وكأنني آثار قاع صفصف
لا تنهروني واسألوا عن لوعتي … أمي (الطبيعة) في أسى وتلطف
لا تنهروني رب صخر جاثم … يرنو إلى يود لو هو مسعفي(١)

* * *

لقد تعمدت نقل هذه النصوص لأثبت أن الشعر تجربة ، وانغماس في هذه التجربة ، بتمثلها ، وإدارة معانيها ، والإبانة عنها على نحو ينقلها من الذاتية إلى الموضوعية ، ويوسع نصابها ونصيبها في عالم الأحياء لأنها تريها حقيقة النفس الإنسانية حين تهتاج فتضع في ألفاظ اللغة المضاعفة بالإحساس والنفوذ إلى مكامن الحواس ما ليس في طاقة الكلمات أن تعطيه

---

(١) ديوان الإنسان الجديد ص ٣٢٧ - ٣٢٨ - ٣٢٩ .

منفردة ، وكأنها أعنى النفس الإنسانية قد وضعت يدها على الصورة أو الصور التى أرادت رسمها وتشكيلها ، ثم نفخت فيها الحياة حين نقلتها إلى شعور الآخرين فلم تعد خاصة بالشاعر وحده ، وإنما أصبح عموم التعبير والمعنى فيها أقوى ألف مرة من خصوص السبب .

ومن هنا كذلك يسمع قصيدة الشاعر حسن كامل الصيرفى ، فى قصيدته « موكب البعث » التى قالها عقب قيام الثورة المصرية عام ١٩٥٢ م وخروج الملك واستقبال البلاد فجرا جديدا ، ثم يصغى بأذن قلبه إلى المحاور التى دارت عليها من حديث عن الطاغية وقد سماه ظلمة :

زحزحوا الظلمة عنا زحزحوها ... وارفعوا الغمة عنا واكشفوها
وإلى البحر الذى يقذفنا ... كل حين بالطواغيت اقذفوها
غمة طالت ، وطالت حقبة ... زيف التاريخ فيها مفسدوها
عبدوا فيها ضلالات الهوى ... وارتضوا بالذل لما عبدوها

* * *

إلى الحديث عن هؤلاء المنافقين الذين يركبون كل موجة ، وينعقون بما لا يسمعون ولا يبصرون :

كم عقود من مديح لمسوها ... وسحابات بخور أطلقوها
وهتافات إليها رددوها ... وبطولات عليها أفرغوها
سور الحمد عليها تليت ... من نفاق وزياء ألفوها

* * *

إلى الحديث عن نفسه التى لم تتخذ من الذل مركبا . ولا من النفاق بضاعة :

أحمد الله على أن يدى ... لم تخط المدح والتمجيد فيها
عشت فى معبدى الحر أرى ... ذل أقزام أرادت أن تتيها

من جياه مرغت فى حمأة وظهور لنفاق قوسها
ووجوه كل يوم تطلى صبغة ماكرة، شاهت وجوهها

* * *

إلى الحديث عن تاريخ هذا الملك المتضعضع، وبطانة السوء من حوله:

كانت الغمة تاريخ فتى ورث الملك غريرا وسفيها
نشأته عصبة فاسدة عبدت مالا وحكما يزدهيها
ومشت فى ظله عابثة بالأقاليم التى لا تتقيها
ومشت فى أثرها قافلة لا ترى فيها أبيا أو تريها

إلى أن قال:

كان عهدا لا أرينا ظله أغبر السحنة مجوجا كريها
عاشه الشعب على مر الأسى غصة يسقى، ونارا يكتويها

وأخيرا استقبل صباح الحرية، صباح الثورة التى كانت آنذاك أملا لشعب يعانى مأساة حكم، ومهزلة تاريخ، ويتمنى الخلاص من جاهلية طال أمدها وظلم تكثفت ظلماته:

يا صباحا آمن الناس به حين جلاه لنا الفجر وجيها
كبت الأصنام فيه واختفى فى غيابات الزوايا عابدوها
وتلفتنا حوالينا نرى ظلمة تجرى، ونورا يقتفيها

* * *

يا صباحا كان حلما نائما فى ضلالات ظلام نسجوها
طال تسآلى، وطالت رقبتى لك حتى صافح النور الوجوها
ردت الأمة فيه أمة تأخذ الراية ممن سلبوها
وتقيم الحق فيما بينها أبلج الطلعة وضاحا نزيها

موكب البعث فيها منطلق يدفع الطامع فيها ، ويقصيها
ويرد البغى مسلوب الحجا ويرى الطغمة قسرا ما يريها(١)

أقول : « إن الذى يسمع هذه القصيدة يوقن أنها صوت أمة . ولسان شعب وليست فقط تجربة شاعر ناقم على الذل ، نافر من الضعف ، أبى على الذل ، كافر بالاستعباد ، وتصويره لبطانة السوء ، ليس فقط من أجل التشهير بهم والازدراء لفعلهم ، أو حتى التعريف بمساوئهم فهم موجودون فى كل عصر منبثون فى كل زمن ، ولا تكاد تخلو منهم أمة من الأمم بل أى جماعة من الجماعات وإنما تصويرهم للتنفير من فعلهم ، وتطهير النفوس البشرية من مستنقعات رزائلهم » وللاشارة إلى أن أقوى ما ينفع الأمة هو الخلق الثابت ثم الخلق الثابت ، ثم الخلق الثابت ومن ثم يتجه المجتمع كله إلى تحقيق الغاية التى لا يكبر عليها الكبير ، ولا يصغر عنها الصغير وهى الحق والخير والحب والجمال وإذا كنا قد قررنا الحقيقة التى لا امراء فيها وهى أن النفس البشرية طلعة متقلبة غير قارة على طبيعة ثابتة فمنها النفس المؤمنة وهذه تنبت الخير فى كل ما يصدر عنها من معنى ، والجمال فى كل ما تصوره من حقيقة ، والحق فى كل ما تبدعه من موضوع وهى بذلك تظل إنسانية خالدة متجددة يستقبلها كل جيل يأتى ويودعها كل جيل غبر .

ومنها النفس الحائرة التى لا تتجه لقصد ، ولا تدرى لنفسها غاية .

ومنها النفس التى تنبت الأوجاع والآلام والأحزان والمصائب .

ومنها النفس المتكبرة حتى لكأنها رميت فى عقلها لشدة هوسها وحماقتها .

أقول : « إذا كنا قد قررنا كل هذا فإن كل نفس من هذه النفوس تأخذ من اللغة العربية ما يتفق وعنصرها وطبيعتها ، ومن ثم تقرر الحقائق الإنسانية الخالدة بالمقابلة بينها وبين الهوى المنحرف ، والكبرياء المزيفة ،

(١) ديوان صدى ونور ودموع للصيرفى ص ٢٠٠

والرأى المعاند ، فالفرزدق حينما قيل له فى مرضه الذى مات فيه : اذكر الله عز وجل ، سكت طويلا ثم قال :

إلى من تفزعون إذا حثوتم ... بأيديكم على من التراب
ومن هذا يقوم لكم مقامى ... إذا ما الريق غص من الشراب

* * *

فقالت مولاة له : نفزع إلى الله . فقال : « أخرجوا هذه من الوصية ، وكان أوصى لها بمائة درهم (١) .

أخذته العزة بالإثم وهو على فراش الموت ، لأنه يذكرهم بمعنى موته وفقده وذكرته الجارية بالحقيقة التى لا مرية فيها وهى أن الله هو الملجأ والمستعاذ .

وأبو نواس ، وقد عاش حياته اللاهية بكل ما فيها من خمر وغزل وإثم حينما دخل عليه أحد أصدقائه وقد اشتد وجعه ، وتغيرت حاله قال له :

يا أبا نواس ، كيف تجدك ؟

فقال : أجدنى على الحق ... فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما قدمت ، ويا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله ثم أنشد :

دب فى البلاء سفلا وعلوا ... وأرانى أموت عضوا فعضوا
ليس تمضى من ساعة بى إلا ... نقصتنى بمرها بى جزوا
لهف نفسى على ليال وأيا ... م عليتهن لعبا ولهوا
ذهبت جدتى بلذة نفسى ... وتذكرت طاعة الله نضوا
قد أسأنا كل الإساءة فاللهم ... صفحا عنا وغفرا وعفوا

(١) المتع فى صنعة الشعر ص ١٨٤ ؛

وكان دائما يردد قوله :

يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر
ليس للانسان إلا ما قضى الله وقدر
ليس للمخلوق تدبير بل الله مدبر
أعظم الأشياء فى أصغر عفو الله يصغر (١)

وأنه لمن الحبب إلى نفسى أن أنقل هنا ما كتبه الأستاذ العقاد رحمه الله عن الشعر حين قال : (فاطلب من الشعر أن يكون عنوانا للنفس الصحيحة، ثم لا يعنيك بعدها موضوعه ، ولا منفعته ، ولا تتهمه بالتهاون إذا لم يحدثك عن الاجتماعيات والحماسيات والحوادث التى تلهج بها الألسنة ، والصيحات التى تهتف بها الجماهير . وهات لنا الشاعر الذى ينظم قصيدة واحدة يحبب بها الزهرة إلى المصريين ، وأنا الزعيم لك بأكبر المنافع الوطنيـــة ، وأصدق النهضات وأهنأ مسرات المعيشة، ومباهج الحياة. فإن أمة تحب الحدائق وتحب التنظيم والتنسيق ، وتحب النظافة والجمال ، وتحب العمارة والإصلاح ولا تطيق أن تعيش فى الفاقة والجهل والصغار ، وهات لنا الشاعر الذى يعلمنا الغزل الجميل ، وأنا الزعـــيم لك بأمة من الرجال الكرماء والنساء الكرائم والأبناء النجباء يدرجون فى حجر العطف والذوق والصحة، لأن الشاعر الذى يعرف كيف ينظم الغزل يعرف كيف يقوم المرأة بقيمتها فى الأمة . وكيف يهذب البيوت ، ويشرع القوانين والدساتير . بل هات لنا الشاعر الذى يعلمنا اللهو والطرب وأنا الزعيم لك بأمة تعيش عيش الآدميين، ولا تسخر تسخير الأنعام، وتعمل ليلها ونهارها للقوت الحيوانى وضرورة الأجساد(٢).

وذلك يعنى أن بناء القيم الإنسانية الخالدة وتوكيد القيم الخلقية الفضلى

---

(١) أبو نواس فى تاريخه وشعره ومباذله وعبثه ومجونه لابن منظور المصرى ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٢) ساعات بين الكتب للعقاد ١٢٦/١ .

ى النتيجة التى ينتهى إليها الشعر فى كل المجتمعات الإنسانية على اختلاف
مذاهب الشعراء فى التفكير ، وتمثيلهم للواقع الاجتماعى بكل ما يدور فيه من
خير وشر ، وإيمان وكفر ، لأن الشاعر حينما يثور وتصل ثورته حد العربدة
الفاجحة ، والجرأة المتوقحة ، فإنه لا يثور على القيم والمثل والمبادىء - وإن
بدا هذا المعنى من حيث الظاهر - وإنما يثور على المجتمع الذى استحكم فيه الظلم
حتى أصبحت الغلبة للأقوى ، واستعلن فيه التهكم حتى امتلأت القلوب حقداً
والنفوس سخطا وشرا ، وكثرت الشهوات والمباذل والملذات حتى أصبح
السكر والمجون ظاهرة كأنها فى شريعة الحياة أس من أسسها ، وقيمة من قيمها .
هذه الثورة تأتى فى شكلين :-

الشكل الأول : هو السوى الصحيح ، ويتمثل أصدق تمثيل حين تنعكس
القيم الإنسانيه والأخلاقية على بصيرة الشاعر فتجىء ولها جلالها وجمالها ،
جلالها الإنسانى ، وجمالها البيانى الذى يحببها إلى النفس ، ويوصل معانيها
فى قرارة الحس ، وفى هذه الحالة يكون الشاعر وشعوره صخرة عاتيه تتحطم
على جنباتها كل مايسوه أو يشوه الأعراف والتقاليد والمواضعات الاجتماعية
الثابتة دون حيرة فكر أو بلبلة خاطر ، وتسقط أمامها جميع النقائض
الأخلاقية التى تستشرى أحيانا حتى تصبح من المقررات الثابتة فى المجتمع ؛
وتألف النفس منكرها وزيفها حتى تحل محل الفضيلة التى غابت فى غياهب
ظلماتها المتراكبة .

أما الشكل الثانى :- فإنه الوجه الذى ظاهره السلب وباطنه الإيجاب ،
لأنه الصورة التى ترسم الوجه الحقيقى للمجتمع فى أى عصر من العصور
دون زيف أو تجميل ، وهنا قبل أن نحاسب الشاعر على ما اقترفه من إثم ،
وأعلنه فى شعره من منكر نحاسب المجتمع الذى ازدراه وسخر منه حتى
جعله يكفر بالفضيلة ، وأصابه بل طعنه فى شرفه وكرامته حتى ملأه حقدا
وشرا ودفع به فى مهاوى الرذيله حتى خرج عن حق الحرية القائم على

المسئولية لأنه ليس وزر اشكل نفسه بنفسه ، إنما هو إنسان كأى إنسان أصيب بسبب وضعه الاجتماعى الوضيع فى مجتمع طبقى مترفع بما يشبه الانفصام بينه وبين نفسه ، وبينه وبين مجتمعه ، فتباعدت عنه - بدلا من أن تحوطه - آداب الدين وآداب المجتمع ، لجاء فلتة من الفلتات الشاذة التى تستهين بكل مبدأ وتعلن ثورتها العتية حتى على نظام الكون والحياة.

والشعر فى هذه الحال (تنفيس حر عن الوجدان فى قضاياه الخاصة والعامة ولا صدام فيه لأنه منوع كثير الأنمـــاط ، يناسب حالات كثيرة من النقائض التى تعرض للإنسان.

أن القداسة عبء ثقيل لا يقوى عليه المخلوق الفانى فى جميع أوقاته ، ولكن المعبد الذى يأذن إلى جانبه بالمضمار الرياضى ، والمنبر البليغ ، يعطى الإنسانية حقها ، ويعينها على واجبها إذا أرادت أن تعان عليه)(١).

(١) اللغة الشاعرة ص ١٢٢